اسم الدرس : تفسير سورة الحديد | الجزء الثاني

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته ..

الحمدلله والصلاة والسلام على رسول الله –صلى الله عليه وسلم–.

توقفنا في سورة الحديد عند المقدمة التي طوّفت بنا في أسماء الله عز وجل وصفاته، وذكرنا أن هذه المقدمة قد أولاها كثير من المفسرين عناية هامة.

ثم انتقلنا –بعد المقدمة مباشرةً– إلى قول الله عز وجل:

"آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ" [الحديد:7] وذكرنا أنها بدأت بفعل أمر بعد هذه المقدمة، وهو **تجديد الإيمان والإنفاق**

هناك مَن قال: "ءامنوا" المقصود بها هنا **تجديد الإيمان وليس بداية الإيمان**؛ لأنهم كانوا مؤمنين أصلًا، وذكرنا أن هذه السورة نزلت في وقت فيه أزمة وشدة وتعب، **وتجديد الإيمان في الأزمات يحتاج إلى معرفة الله عز وجل**.

هذا التجديد مهم ليظل الإيمان في وقت البلاء والضراء حيًّا نابضًا بنفس القوة التي كان عليها في السراء؛ وهذا يحتاج إلى معرفة الله عز وجل.

جاء هنا أمران: (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا)،

وذكرنا أن هناك مَن استجاب مباشرةً في نفس الآية: (فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ).

وقد ذُكر الإنفاق في هذه السورة كثيرًا؛ لأن الدين يحتاج إلى بذلٍ وقت الشدائد.

وليس المقصود بالإنفاق هنا مجرد الإنفاق المادي فقط –وإن كان هو الأهمّ–، لكن الدين يحتاج إلى **بذل** في هذا الوقت، وهذه نقطة مهمة جدًّا في السورة.

تذكّرْ دائمًا **محاور السورة** التي سوف تتكرر فيها:

– ذكرْنا قضية (النور) في المرة السابقة، وأنها ستتكرر معنا في السورة

– وأيضًا مسألة (الإيمان بالله) سوف تتكرر في وقت الشِّدة

– ومعرفة الله عز وجل أيضًا،

كل هذه معانٍ معينة يجب أن نعرفها وقت الشدائد وسوف نذكرها،

- كذلك مسألة (البذل والإنفاق) لدين الله عز وجل في وقت الأزمات، هذه المسألة سوف تتكرر معنا في السورة.

إذًا جاء بأمرين: (آمِنوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا)، ومن ثمّ جاء لكل أمر بآيتين تُعلِّله وتُبيّنه؛ آيتان للإيمان، وآيتان للإنفاق.

بدأ بالإيمان:

"وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" [الحديد:8]

وما لكم: بمعنى أيُّ شيء لكم؟ ماذا تستفيدون من عدم إيمانكم؟ لماذا لا تؤمنون؟

"وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ"

فالمقصود من الإيمان هنا ليس مجرد الإيمان ابتداءً، بل تجديد الإيمان في وقت الشِدّة،

وكأن الله تعالى يقول لهم: أنتم لم تؤمنوا الإيمان المطلوب في هذه الشدائد، لماذا؟

رغم أن النبي _صلى الله عليه وسلم_ يدعوكم لتؤمنوا.

وجاءت بصيغة المضارع؛ أي يكرر عليكم طلب الإيمان في وقت الشِّدة.

ما معنى هذا الكلام؟

"لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ "

- أي: أن العهد والميثاق قد أُخذ عليك في أول إيمانك، بأنك سَتُطيعُ النبي -صلى الله عليه وسلم- في كل الأحوال، في المنشط والمكره والسراء والضراء،
  منذ البداية عندما دَخلْتَ هذا الدين عُقد معك الميثاق في كل الأحوال،
  لم تشترط؛ لم تقل أنا أريد الدين ولكن بغير جهاد ولا زكاة، لا؛ مَن يفعل ذلك لا يُقبل
  أنت عاهدتَ الله بالميثاق الذي أُخذ منك، وهذا هو اختيار ابن كثير في معنى كلمة "وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ " أي **بيعة النبي -صلى الله عليه وسلم-**.
- ومال بعض المفسرين إلى كونها مسألة **الميثاق الذي أُخذ علينا في عالم الذر**:
  "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم"[الأعراف:172]،
  أخذ الميثاق عليهم، مسح على ظهر آدم وأخرج ذريته، وقد كان هذا في عرفة.
- وبعضهم قال أن هذا الميثاق هو **الفطرة**.

فأيًّا كان هو الميثاق الذي أُخذ علينا؛
ميثاق عالم الذر أو ميثاق الفطرة أو ميثاق بيعة النبي –صلى الله عليه وسلم-، أيًا كان الميثاق،
معناه: أن الذي يُطلب منك لا يخالف الفطرة، ولا يخالف الإيمان، ولا يخالف البيعة،
فلماذا لا تؤمن؟

هناك أمر هام، وهو: أن **الإيمان لابد أن يتجدد**
هناك فتن تحدُث، فيظهر إيمانك على حقيقته.

لنا في كل وقتٍ عبودية

يقول الله عز وجل في أول سورة محمد –صلى الله عليه وسلم-:
"الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ " [محمد: 1-2]،
هم آمنوا وعملوا الصالحات، إذًا لماذا تكرر فعل الإيمان ثانيةً؟
هم آمنوا وعملوا الصالحات وماذا بعد؟ أنهم آمنوا بما نُزّل على محمد –صلى الله عليه وسلم-،
(نُزّل) تفيد التكرار، ليست (أُنزل) على محمد،
أي: أنكم آمنتم بالله وعملتم الصالحات، وآمنتم بما تكرر نزوله من أوامر على مدار الشدائد والفتن.

فمثلًا؛ آمنوا بما نُزّل على محمد يوم بدر من أوامر للخروج للجهاد فخرجوا، وآمنوا بما نُزل على محمد يوم أحد، وآمنوا بما نُزل على محمد في صلح الحديبية، وآمنوا بما نُزل على محمد في فتح مكة، وآمنوا بما نُزل على محمد في تبوك،
فإيمانهم يتجدد مع كل شِدّة؛ لأن هناك أوامر خاصة تأتي مع كل شدة.

ففي المرحلة المكية: قد يأتي الأمر "كفوا أيديكم"
أما في المرحلة المدنية: "قاتلوا" و "جاهدوا"
إذًا؛ **الأوامر تختلف حسب الأوقات والشدائد والفتن، فنحن لنا في كل وقت عبودية.**

الذي يستطيع أن يقدم العبودية الخاصة بكل وقت، هو الذي حقق الإيمان المطلوب منه،
لكن الكثير مِنّا –إلا من رحم الله– يقدم العبودية المطلوبة أو الإيمان المطلوب في وقت الرخاء فقط،
لكن عدد الذين يثبتون في وقت الشدة قليل.

عتاب للمؤمنين في المسبحات وتنبيه أن الله غنيٌّ عنهم

وقد ذكرنا في المرة السابقة أن السورة من (المسبّحات)؛ التي بدأت بالتسبيح،
وذكرنا أن أكثر المسبحات يكون فيها شيء من العتاب لأهل الإيمان لتباطُئهم.
فمثلًا؛ ذكرنا أن سورة الجمعة بدأت بالتسبيح؛ لأنهم إذا رأوا تجارة أو لهوًا انفضوا إليها،
وسورة التغابن بدأت بالتسبيح؛ لأن هناك أشخاص تُغبن في أوقاتها ومع أهلها وأزواجها وأولادها،
وهنا –في سورة الحديد– حدث نوع من التباطؤ في البذل:

- "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ"
- "وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ"
- "وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا"

فنلاحظ حدوث نوع من التباطؤ في البذل في الفتن والشدائد، فدائمًا تنزل المسبحات في هذا الوقت لتقول: أن الله غني عنكم، الكون كله يسبح لله –عز وجل–، والله –عز وجل– غني عن عبادتك، ويأتي بها بصيغة العتاب.

المسبحات غالبًا –وإن كان هذا الأمر يحتاج إلى استقراء قوي–، في الأغلب فيها استعتاب، عتاب واستبطاء، مثل:
سورة الصف بدأت بالتسبيح وأيضًا بها عتاب؛ في أول السورة نجد "لم تقولون مالا تفعلون *كبر مقتًا"،
إذًا أكثر المسبحات بها عتاب.

إذًا؛ "وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ":
أي: يدعوكم مع كل وقت وكل شدة إلى إيمان معين، إلى بذل معين.

لذلك؛

يقول الله أن هناك أزمات تحدث وهي أشبه بالظلمات، فينزل القرآن يبين لنا ماذا نفعل في هذه الظلمة حتى نخرج منها إلى النور.

– هذا ما حدث في صلح الحديبية، كان واقعًا غير مفهوم عند كثير من الصحابة، فنزلت سورة الفتح توضح لهم ماذا حدث

–أيضًا مثل واقع غزوة أحد في سورة آل عمران، لم يفهموا ماذا حدث، وقالو "أنّى هذا"، فنزلت سورة آل عمران تبين لهم ماذا حدث.

"هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ" [الحديد:9]

فيقول الله لهم؛ أنه عندما طالبكم بالإيمان لم يقل لكم آمنوا ثم ترككم هكذا بلا توضيح، كلا:

"هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ"

"يُنزل" أتت بصيغة المضارع؛ أي لم يترككم، وإنما طالبكم بالإيمان وبيّن لكم ماذا تفعلون في كل موقف، وكذلك في هذه السورة التي معنا قبل أن يأمرهم بالإيمان عالج مشاعرهم أولًا بمعرفة الله ثم قال لهم آمنوا.

فكذلك العتاب الذي يحدث في كل موقف من المشكلات؛ لماذا لم تفعلوا كذلك؟

فكان الله تعالى ينزل لهم قرآن يوضح لهم ماذا يفعلون.

"هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ "

بصيغة المضارع

" عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ "

كلمة آية كانت كافية، "آية" تعني شيئًا ظاهرًا واضحًا، لكن جاءت بصيغة الجمع "آيات بينات"؛ لماذا؟

" لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ "

(ينزل) بصيغة المضارع و(يخرج) بصيغة المضارع،

أي: أحيانًا تحدث شدائد أقرب بالتشبيه إلى الظلمات، وهي الفتن؛ الفتن مظلمة –مثل الواقع الذي نعيشه الآن المليء بالفتن والظلمات–، فينزل علينا القرآن، ليخرجنا من الظلمات إلى النور.

إذًا؛ واجبنا لنستمر في هذه الوظيفة **أن نعود إلى القرآن**، وواجب العلماء الربانيين أن يعودوا إلى القرآن، ليستنبطوا منه الواقع، ويستنبطوا الآيات البينات التي نزلت في القرآن لتخرجنا من الظلمات إلى النور.

"هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُم لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ" [الحديد:9]

"هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ "

الله لن يترككم أبدًا.

" وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ"

رؤوف رحيم؛ معناها أنه لن يترككم في الظلمات، في وقت الفتن، ينزل لكم نورًا وينزل لكم قرآنًا يوضح لكم كيف تتصرفون.

- سؤال غير مسموع من الجمهور.
- الشيخ: ماذا تقصد بالفرق بين الصحابة وبني إسرائيل؟
- كلام غير مسموع من الجمهور.
- إجابة الشيخ: نعم، هذا ما جعل بني إسرائيل يدخلون في التيه في كل المواقف؛ لأنهم كانوا يرفضون الآيات البينات التي تنزل، فلا يخرجون من الظلمات إلى النور بسبب هذا الرفض، أما الصحابة فكانت تنزل عليهم الآيات البينات، فيؤمنوا بها ويطبقوها، فيخرجون في كل موقف من الظلمات إلى النور، وإسقاطها علينا أننا لو ابتعدنا عن القرآن سنظل في الظلمات.

إذًا؛ الحل الأوحد للخروج من الظلمات إلى النور هو: العودة إلى الآيات البينات.

"هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ"،

"الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور" [البقرة:257]

"هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ" [الحديد:9]،

هذه هي مسألة تجديد الإيمان في وقت الأزمات،

هذا هو الإيمان،

هذه هي العقيدة الراسخة، التي تجعلك تقول عندما ترى اجتماع الأحزاب: هذا ما وعدنا الله ورسوله،

هذه هي العقيدة،

هذا هو تجديد الإيمان.

"وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" [الحديد:10]،

وأنت، لست مُطالبًا بأن تثبت على إيمانك فحسب؛ وإنما أنت مأمور بأن تبذل في وقت الأزمات: "وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ" [الحديد:10]،

انتبه؛

- عندما قال هنا (آمنوا)؛ بيّن أن هذا الإيمان مناسب للفطرة،
  وأن هذا الإيمان بيعة أُخذت عليك، وأنه سبحانه وتعالى لم يتركك هكذا،
  وإنما أنزل لك آيات بينات..
  كل هذه الأمور تجعلك لا تتردد في الإيمان.

- فلما قال (أنفقوا)؛ دائمًا من الأمور التي تحث على الإنفاق أن يخبرك بحقارة الدنيا،
  أو يحثّك على الإنفاق من أجل الثواب؛
  هذا جاء متأخرًا.

فجاءت في نفس السورة مسألة: "اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ" [الحديد:20]،
والثواب سيأتي الآن: "يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم" [الحديد:12]

جاءت بداية الحديث في مسألة الإنفاق مشابهة للبداية التي بدأت بها السورة وهي (معرفة الله):
"وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"،
لله –الذي سمعت وقرأت عنه في أول السورة– لله،
(مَن هو الله)؟
الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، لله الذي خلق السماوات والأرض، الذي يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها.

فعندما تأتي هذه الآية يكون لها وقع مختلف:
"وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"،

هنا لها وقع مختلف على القلوب؛

"وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"

الله عز وجل يرث السماوات الأرض ومن عليها، أي أن الكل يموت ويبقى كل شيء لله الواحد القهار -سبحانه وتعالى-، فأنت تنفق في سبيل الله —عز وجل-.

وانتبهوا أن مصطلح "فِي سَبِيلِ اللَّهِ" —غالبًا- يأتي بمعنى: **الجهاد والقتال في سبيل الله**.

أي أن: "وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ":

ليس المقصود بها أوجه الخير العامة —وإن كان بعض المفسرين قال ذلك-،

إنما أغلب استعمال كلمة (في سبيل الله) في القرآن والسنة **خاص بالجهاد**،

وكذلك في أوجه الزكاة:

"إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ" [التوبة:60]،

إذًا في سبيل الله هنا يُقصَد بها الجهاد.

فرأي الجمهور والعلماء والفقهاء أن "وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ" هنا المقصود بها الجهاد.

"وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ"،

إذًا هذا وقت فيه أزمة وشدة على الدين، فيجب أن تبذل لنصرة دين الله،

"وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ".

وهنا ذُكر أمر عجيب جدًا:

"لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" [الحديد:10]

مسألة الإنفاق في وقت الأزمات لا يقدر عليها إلا موقن،

ولا يقدر عليها إلا مصدق،

ولا يقدر عليها إلا مخلص.

دعونا نكرر: **الإنفاق في الأزمات والضيق والشدة، والبذل في الضيق والشدة؛ لا يقدر عليه إلا مخلص وموقن ومصدق**، لذلك جاءت آيات النفاق بعدها مباشرة.

الأزمات هي التي تميز في الدنيا بين المؤمنين والمنافقين؛ فالتمييز بين المؤمنين والمنافقين يحدث:

- في الدنيا : في وقت الأزمات والابتلاءات،
- ويحدث في الآخرة : بسور يضربه الله بين المؤمنين والمنافقين.

لنكرر ثانية؛

السور الذي سيُضرَب بين المؤمنين والمنافقين في الدنيا هو **الابتلاءات والأزمات والفتن**

عندها يظهر المنافق، البذل يُظهر المخلص والصادق والموقن،

وقت الضعف لا يبذل إلا صاحب اليقين؛ وذلك لعدم وجود أمل للنصر ولا أمل للتمكين في وقت الضعف، فالدنيا مظلمة.

فبالنسبة للناس؛ الذي يبذل في ذلك الوقت هو كالذي يلقي أمواله في الهواء ويضيع جهده أدراج الرياح.

يقول بعضهم:

هل يُعقل أن تعطي من مالك لأشخاص مساكين لن يكسبوا طول عمرهم؟!

أنت بذلك تبذل لقضية خاسرة لا محالة، هكذا يفكر المنافقون، ماذا تفعل بنفسك يا هذا؟!

أتريد أن تقف مع الصف الضعيف؟!

هل هناك عاقل يقف مع الصف الضعيف وهو يتعرض للأذى؟!

لا يبذل في وقت الأزمات إلا الموقن

لذلك؛ نرى أن مسألة (التصديق) مهمة جدًّا في السورة، وتتكرر كثيرًا، التصديق والتصدُّق:

"إن المصَّدِّقين والمصَّدِّقات" وفي قراءة "إن المصَدِقين والمصَدِقات" [الحديد:18]

وفي نفس السورة في كل القراءات:

"وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ" [الحديد:19]

وسنربط هذا الكلام كله مع بعضه إن شاء الله تعالى في آخر السورة، وسنذكر مسألة الريبة:

"وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ" [الحديد:14]

المؤمن لا يرتاب!

لذلك؛ من هم المؤمنون؟

عندما أراد ربنا أن يوضح لنا من هم المؤمنون في آخر سورة الحجرات، بعد قول بعض الأعراب آمنا،

"قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ" [الحجرات:14]،

ذكر في الآية التي تليها من هم المؤمنون، فقال تعالى:

"إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا" [الحجرات:15]،

وبعدها مباشرة ماذا قال؟

"وَجَاهَدُوا"،

لن يجاهد إلا غير المرتاب،

لن يقدر على البذل والجهاد إلا مَن وصل لدرجة عالية من اليقين،

المرتاب لا يقدر على الجهاد ولا يتحمله، مثل المنافقين:

"يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ" [التوبة:50]،

لا يتحمل البذل، يقول لم أبذل؟

افترض أن الأمر لم ينجح، أو أن الطريق الذي سرت فيه تبين أنه طريق خاسر، –هو مرتاب–، ما الذي يجعلني أخرج مع أهل بدر وهم قلة وعددهم ٣١٤ فقط، وهم يواجهون الكافرين وعددهم ١٠٠٠ مقاتل؟!

لا، أنا لا أدخل معركة خاسرة..

هذا هو تفكير المنافق.

ولكن، المؤمن يبذل في الأزمات، البذل في الأزمات هو أساس التفضيل:

"لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ"

الذي يبذل وقت الضيق يُقدَّم على غيره، كما قال الإمام مالك –رضي الله عنه– وغيره:

(هذه الآية تبين الفضل لأهل العزم والبذل في وقت الأزمات)، لأهل العزم والبذل.

تضع لنا هذه الآية قاعدة، مفادها أن المؤمنين ليسوا جميعًا في نفس الدرجة، وأن مقامات الناس تختلف، هذه المقامات ليست مقامات شرفية، بل هي مبنية على أساس أمرين:

على أساس السبق والبذل،

على أساس ماذا؟

السبق والبذل.

هل معنى ذلك أن مَن يأتي متأخرًا لا شيء له؟ كلا فالله سبحانه وتعالى قال:

"وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ"،

وآخر الآية:

"وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"،

كلمة "خبير" تأتي للحديث عن النوايا، فقد يأتي شخص متأخر جدًا جدًا جدًا، لكنه سبق بنيته كل مَن قبله.

العبرة ليست بمن سبق ولكن العبرة بمن صدق.

إذًا، الشاهد:

"لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ"،

أولًا، ما المقصود هنا بالفتح؟

جمهور المفسرين قال: المقصود هو فتح مكة،

الإمام الطبري اختار –وروى عن بعض السلف– أن المقصود هو صلح الحديبية؛

فهو الفتح المذكور في: "إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا" [الفتح:1]

فاختار أن فتحًا مبينًا في سورة الفتح المقصود به أيضًا صلح الحديبية، وأن الفتح المبين هو دخول الناس في دين الله أفواجًا.

وبعض الناس فرّق بين النصر والفتح؛ "إذا جاء نصر الله والفتح" [النصر:1]

فقال أن النصر هو النصر المادي، وأن تهزمهم هزيمة عسكرية فتنتصر،

والفتح هو التمكين في قلوب الناس ودخول الناس في دين الله أفواجًا.

لذلك؛ "إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا" [الفتح:1]

المقصود هو: صلح الحديبية، فلماذا اعتُبر فتحًا؟

الإمام الزهري وغيره يُجيب: لأن عدد الذين دخلوا في الإسلام خلال السنتين اللتين لحقتا صلح الحديبية، كان ضعْف عدد الذين أسلموا قبله؛ فسمي فتحًا. وجاء في بعض الروايات –وإن كان فيها ضعف وبعضهم قال حسن– أن النبي صلى الله عليه وسلم سُئل عن صلح الحديبية: أوَفتحٌ هو؟ قال: "نعم"،[1]

[1] ٢- [عن سهل بن حنيف:] كُنّا بصِفِّينَ، فقامَ سَهْلُ بنُ حُنَيْفٍ، فَقالَ: أَيُّها النّاسُ اتَّهِمُوا أَنْفُسَكُمْ، فإنّا كُنّا مع رَسولِ اللَّهِ ﷺ يَومَ الحُدَيْبِيَةِ، ولو نَرى قِتالًا لَقاتَلْنا، فَجاءَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ، فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، أَلَسْنا على الحَقِّ وهُمْ على الباطِلِ؟ فَقالَ: بَلى. فَقالَ: أَلَيسَ قَتْلانا في الجَنَّةِ وقَتْلاهُمْ في النّارِ؟ قالَ: بَلى، قالَ: فَعَلامَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنا، أَنَرْجِعُ ولَمّا يَحْكُمِ اللَّهُ بيْنَنا وبيْنَهُمْ؟ فَقالَ: يا ابْنَ الخَطّابِ، إنِّي رَسولُ اللَّهِ، ولَنْ يُضَيِّعَنِي اللَّهُ أَبَدًا، فانْطَلَقَ عُمَرُ إلى أَبِي بَكْرٍ فَقالَ له مِثْلَ ما قالَ للنبيِّ ﷺ، فَقالَ: إنَّه رَسولُ اللَّهِ، ولَنْ يُضَيِّعَهُ اللَّهُ أَبَدًا، فَنَزَلَتْ سُورَةُ الفَتْحِ فَقَرَأَها رَسولُ اللَّهِ ﷺ على عُمَرَ إلى آخِرِها، فَقالَ عُمَرُ: يا رَسولَ اللَّهِ، **أَوَفَتْحٌ هُوَ؟ قالَ: نَعَمْ.**
البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٣١٨٢ • [صحيح]

ولم يكن المؤمنون يأمنون على أنفسهم قبل صلح الحديبية، كما كان في غزوة الأحزاب، وظنّ المنافقون أن أي قوة يمكنها استئصال المؤمنين، فالمؤمنون كانوا يعيشون في خوف دائم من أن يتم استئصالهم في أي لحظة. الذي بذل في هذا الوقت هو الذي يسبق؛ لأنه لا يقدر على ذلك إلا موقن مصدق مخلص.

سورة الليل تتحدث عن الظلمة التي جاءت بعد الشمس:

"وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ" [الليل:1]

ماذا يقول الله عز وجل في هذه الظلمة الشديدة؟

"فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ" [الليل:5]،

من الذي يستطيع أن يعطي ويتقي في هذا الوقت؟

"وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ " [الليل:6]،

لا يستطيعها إلا مُصدق وموقن، لا يستطيع البذلَ في وقت الليل –أي عند الأزمات والفتن والظلمة– لا أحد يستطيع أن يبذل إلا الموقن.

إلا الموقن ومَن أيضًا؟

وإلا المخلص،

لذلك، جاء في آخر سورة الليل:

"إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ" [الليل:20-21]،

لا أحد يستطيع أن ينفق ويبذل ويعطي ويتقي في وقت الليل:

إلا مَن صدق بالحسنى، وإلا من ابتغى وجه ربه الأعلى،

إلا المصدق الموقن المخلص،

هذا هو الذي يستطيع؛ لأنه لا يريد شيئًا، فهو لا يبذل حتى تنتصر القضية، ولا يبني يقينه أو ارتيابه على انتصارها أو هزيمتها

"فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ" [الحديد:14]

هو ليس متربصًا، لا يجلس منتظرًا،

"الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ" [سورة النساء:141]

كلا، فهو ينفق مهما كانت الأزمات.

بعضهم قال: هذه الآيات نزلت في سيدنا أبو بكر؛ لأنه أنفق ماله كله وقت الضيق.

وقد يقول بعضهم: حسنًا، ولكن أنت ما الذي يدريك أن التمكين قادم؟!

افترض أنك بذلت مالك كله وذهب بلا فائدة؟!

هذا تفكير المنافق؛ يقول لك لنفترض أني بذلتُ، أو مُتُّ بلا فائدة!

نقول: لا يوجد عندنا هذا المفهوم (أني متُّ وذهب موتي سدى)،

أنتَ بذلت وأخلصت النية لله، وتحققتَ أنك تبذل في مكان محمود شرعًا،

لا تتردد إذًا، وابذل نفسك، ابذل مالك، لا شيء يذهب هكذا سدى.

"وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا"

تم ربط القتال بالإنفاق هنا؛ لأن الغاية الأساسية من الإنفاق هنا هي: القتال في سبيل الله.

إذًا، نود أن نخرج بقاعدة: **(أن وقت الطاعة يؤثّر في ثوابها)**

نكرر القاعدة لأنها شديدة الأهمية في ديننا: (وقت الطاعة يؤثّر في ثوابها).

كما قال النبي –صلى الله عليه وسلم-: "العبادة في الهَرج كهجرةٍ إليّ"[2]،

القيام بالعبادة في وقت الفتن والقتل واختلاف الناس وانصرافهم، تعادل عبادة كالهجرة.

الصلاة في الثلث الأخير من الليل لها معنى آخر، الصيام في وقت القتال والجهاد في سبيل الله؛

"مَنْ صام يومًا في سبيل الله" -أي في القتال في سبيل الله- "بعّد الله وجهه عن النار سبعين خريفًا"[3]،

ثواب البذل في الأزمات مختلف، فالثواب يكون على حسب وقت الطاعة، هذه قاعدة مضطردة في كثير من الطاعات: وقت الطاعة يؤثّر في ثوابها.

فالصادقون المخلصون يتمنون البذل في وقت الأزمات، كورقة بن نوفل في أول بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، حين قال للنبي –صلى الله عليه وسلم-: "ليتني أكون فيها جَذْعًا حين يُخرجك قومك"، فقال له عليه السلام: "أوَ مُخرجيَّ هم؟"[4]،

فالشاهد أن ورقة تمنَّى أن يكون موجودًا في أشد أوقات الاستضعاف.

---

[2] ابن حبان (٣٥٤ هـ)، صحيح ابن حبان ٥٩٥٧ • أخرجه في صحيحه
[3] البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٢٨٤٠ • [صحيح]
[4] البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٦٩٨٢ • [صحيح]

بينما غالبيتنا نتمنى فنقول:

ليتني أكون فيها جَذعًا -أي: شابًّا- حين ينتصر الدين، ويصفق الناس فأصفق مع المصفقين،

معظم الناس يريد أن يحتفل مع من المحتفلين؛ يريد الذهاب إلى المساجد ذات التبريد ويجلس بجانب التبريد، فأغلبنا -إلا من رحم الله- يريد ذلك، ولا يريد أن يمر بأزمات وظروف صعبة تُتْعبهُ،

لذلك؛ الأزمات -كما ذكرنا- هي علامة فارقة بين المؤمن والمنافق،

ولا يستطيع البذل فيها إلا -كما قلنا- مُخلِص مصدِّق مُوقِن.

"لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ"

هنا نلاحظ أمرًا شديد الغرابة؛

لِمَ يوجد أمر بالإنفاق والقتال حتى بعد مجيء الفتح؟!

نعم لابد من ذلك؛ فليس الهدف من الفتح أن ترتاح،

ولا يجب أن يكون سبب سعيك للتمكين هو أنك مللتَ الأذى والشتائم،

أو لأنك مللتَ من سخرية الناس منك في الطرقات،

أو لأن صدرك قد ضاق وتريد أن ترَ الناس يحترمون الملتحين في الطرقات مثلًا، وتقول متى يحصل ذلك.

لا، نحن نريد التمكين حتى يدخل الناس في دين الله أفواجًا.

فعندما يأتي الفتح -سواء فتح مكة أو صلح الحديبية-، ولا زالت فارس والروم تسجد لغير الله -عز وجل-، إذًا حريٌّ بنا أن نذهب إليهم ونُنفق ونقاتل.

فنحن لا نبحث عن الفتح حتى نجلس ونرتاح، كلا،

فبعد أن يأتي الفتح هناك إنفاق وقتال أيضًا.

"وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ"،

خبيرٌ بنواياكم في بَذلكم،

خبير مَن الصادق ومن المنافق،

يَعلَم المخلِص من المنافق،

يَعلم المرائي ممن يبتغي وجه الله -عز وجل-،

يَعلَم ما مدى حاجة الشخص لكل درهم، وأنه محتاج لهذا الدرهم ومع ذلك ينفِقه،
"رُبَّ درهم سبق ألف درهم".[5]

في زمن الأزمات، قد تقوم بفعل بسيطٍ جدًّا أمام الناس، وقد لا يساوي شيئًا بالنسبة لهم،
لكن الله –سبحانه وتعالى– يَعلم قدره عندك وصعوبته عليك؛
"الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ" [التوبة:79]
ليس معه مال، ليس معه إلا جهد، فيبذل جهدًا عوضًا عن الصدقة بالمال،
"فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ منهم" [التوبة:79]
هذا هو البذل في الأزمات، ودائمًا ما يكون وقت الأزمات هو وقت اشتعال سخرية المنافقين من المؤمنين، فأكثر زمن تشتدّ فيه سخرية المنافقين من المؤمنين هو زمن الأزمات والفتن، "سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ".

ما معنى "سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ"؟

قال بعضهم: أي يوم القيامة على الصراط، مثل الآيات التي سترد معنا الآن:
"يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ"،[الحديد:13]
فكما اشتدت سخرية المنافقين من المؤمنين في وقت الأزمات، يسخر الله —عز وجل– منهم يوم القيامة.
هذا هو الربط بين هذه الآيات،
أي هذا هو سبب مجيء آيات سخرية الله من المنافقين يوم القيامة هنا؛
لأن المنافقين يستهزئون ويسخرون من المؤمنين في وقت الفتن والبذل،
"وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ".

إذًا بعد هذه المقدمة، يأتي سؤال:
مَن الذي يبذل وقته وماله ونفسه لنصرة دين الله –عز وجل–؟،
"مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا"؟
"حَسَنًا"؛ أي لا رياء فيه، لا مَنّ فيه، لا تردد فيه، لا ريب فيه، لا تَربُّص فيه.
"مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ" [الحديد 11].

[5] [عن أبي هريرة:] (**سبَق درهمٌ مئةَ ألفٍ**) فقال رجلٌ: وكيف ذاك يا رسولَ اللهِ؟
قال: (رجلٌ له مالٌ كثيرٌ أخَذ مِن عرضِه مئةَ ألفٍ فتصدَّق بها ورجلٌ ليس له إلّا درهمانِ فأخَذ أحدَهما فتصدَّق به)
ابن حبان (٣٥٤ هـ)، صحيح ابن حبان ٣٣٤٧ • أخرجه في صحيحه

متى يارب يكن لي أجر كريم على البذل؟ متى يارب؟

"وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ * يَوْمَ تَرَى"!

"يَوْمَ" هو ظرف متعلق بكلمة "وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ"،

متى يارب آخذ ثوابي كاملًا؟

نلاحظ أن الله مباشرة يربطنا هنا بالدار الآخرة، على الفور،

فهذه قاعدة مضطردة في القرآن؛ **تربية المؤمنين على انتظار الثواب الأخروي أولًا**،

وأن من المؤمنين من سيشهد التمكين ومنهم من لن يشهده،

فهذه قاعدة مضطردة في القرآن.

"يَوْمَ تَرَى" [الحديد:12]

جَاءت "تَرَى" كأنك ترى بعينك، فهذا قمة اليقين.

القرآن دائمًا ما يستعمل لفظ الرؤية في وقت الفتن والأزمات؛ حتى تنزل الآيات بَردًا وسلامًا على المؤمنين؛ لأن السخرية والتعذيب من الكفار والمنافقين للمؤمنين يشتد في وقت الفتن، فيحتاج المؤمنون إلى آيات تشفي آلامهم.

- مثال ذلك ما ورد في أواخر سورة إبراهيم:

"وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ" [إبراهيم:49-50]،

- أو يُصوّر الله لك مشهد:

"فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ"، [المطففين: 34-35]

سيرون بأعينهم لحظات تعذيب المنافقين في جهنم ولحظات تعذيب الكفار في جهنم،

"فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ"، [المطففين: 34-36] ؟

نعم ثُوّبوا ما كانوا يفعلون.

"يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ" [الحديد:12]

من الغريب كذلك في السورة تكرار لفظ التأنيث: مؤمنين ومؤمنات، منافقين ومنافقات، مصدِّقين ومُصدّقات؛ لأن هناك نفير عام بالنسبة للمؤمنين في هذا الوقت،

كل المؤمنين يبذلون: المرأة، الطفل، الشاب، الرجل، الجميع يبذل، المجتمع كله،

والنفاق ليست صفة للرجال فحسب، بل هناك دور للمرأة،

فالنساء المنافقات يقمن بدور في وقت الفتن أيضًا، هم يسعون في الأزمات.

"يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" [الحديد:12]

- أول نور ورد معنا ذكره في السورة هو: **القرآن** الذي ينزل في الأزمات ليعرّفنا كيف نتصرف فيها؛
  "هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ" [الحديد:9]
- أما النور الثاني في السورة هو: **موقف أهل الإيمان الأبطال في وقت الفتن**
  هؤلاء هم القدوات الذين بذلوا؛ "لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ"[الحديد:10]
  هؤلاء كانوا هم النور في ظلام الليل الشديد.

*سورة الليل:

"وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ" [الليل:1-4]، أين هو النور في ظلمة الليل الشديدة؟

"فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ" [الليل:5]،

هذا هو النور، يتمثل النور بوجود **نماذج حية تبذل في زمن الفتن**،

هذا النور هم الناس الذين يقال فيهم: كان قرآنًا يمشي.

القرآن هو النور الأول، والنور الثاني هو النماذج التي تُطبّق القرآن في وقت الفتن،

هذا النور يسعى يوم القيامة: "يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم"

هؤلاء هم الذين استفادوا من نور القرآن وبذلوا في وقت الفتن، فكما كان معهم نور في ظل فتن الدنيا وظلمتها، فكذلك هم فقط من سيحمل النور في ظلمات يوم القيامة –التي قال وصفها الله أنها: "ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ" [النور:40]–، فمن كان معه نور في الدنيا هو الذي سيحمل النور في الآخرة.

وكلمة "يَسْعَىٰ نُورُهُم" أي: أن نورهم يجري؛ لأنهم كانوا يسعون في الأعمال الصالحة.

ونلاحظ أن المؤمنين لا يقومون بالسعي بأنفسهم؛ فلم تأت الآية مثلًا (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعون بنورهم) كلا، بل "يَسْعَىٰ نُورُهُم"، **فنورهم هو الذي يسابقهم**.

وبعضهم قال: يسعى نورهم وهم يركبون على مراكب، أي أن **النور لا يسبقهم**، **بل هو ملاصق لهم**.

ولذلك قال "يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ" ولم يقل (أمامهم) ؛

فلو قال (يسعى نورهم أمامهم)؛ فكلمة (أمام) تعني أن النور من الممكن أن يسبقه بمسافة،

ولكنه "بَيْنَ أَيْدِيهِمْ"، فهم مثل الخليفة أو الأمير أو السلطان نرى دائمًا بين يديه موكب، فهؤلاء كملوك الآخرة.

وأيضًا "بَيْنَ أَيْدِيهِمْ" أي كما كانوا يسعون في الطاعات دائمًا فالآن معهم نور،

و"بأَيْمَانِهِم" قد يعني تلَقِّي الصحف باليمين، وهذا فيه نور.

وقال "وَبِأَيْمَانِهِم" ولم يقل (وعن أيمانهم)؛

ولو قال (عن أيمانهم) قد يُفهم أن النور بعيد بعض الشيء، كلا، بل النور في يده اليمنى.

"يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم"

متى يكون هذا؟

متى "يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم"؟

- قيل: في **أرض المحشر** تكون الأرض مظلمة وهم الذين معهم نور فقط،
- وبعضهم قال: يكون ذلك **على الصراط**، لأنهم سيحتاجون إلى النور على الصراط؛ لأنه مظلم، "الصراط دَحْضٌ مزلَّة"[6]، فيأتي معهم نور أعمالهم.

[6] [عن عبدالله بن مسعود:] يُجْمَعُ الناسُ يومَ القيامةِ إلى، أن قال: فيُعطَوْنَ نُورَهم على قَدْرِ أعمالِهم، وقال: فمنهم مَن يُعطى نُورَه مِثْلَ الجبلِ بينَ يَدَيْهِ، ومنهم مَن يُعطى نُورَه فوقَ ذلك، ومنهم مَن يُعطى نُورَه مِثْلَ النخلةِ بيمينِهِ، ومنهم مَن يُعطى دون ذلك بيمينِه، حتى يكونَ آخِرُ مَن يُعطى نُورَه على إبهامِ قَدمِه، يُضِيءُ مَرَّةً ويُطْفِئُ مَرَّةً، وإذا أضاء قَدَّمَ قَدَمَه، وإذا طَفِئَ قام، قال فيَمُرُّ ويَمُرُّونَ على الصراطِ، **والصراطُ كحَدِّ السَّيْفِ، دَحْضٌ، مَزَلَّةٌ**، فيُقالُ لهم، امْضُوا على قَدْرِ نورِكم، فمنهم مَن يَمُرُّ كانْقِضاضِ الكوكبِ، ومنهم مَن يَمُرُّ كالرِّيحِ، ومنهم مَن يَمُرُّ كالطَّرْفِ، ومنهم مَن يَمُرُّ كشَدِّ الرَّحْلِ، يَرْمُلُ رَمَلًا، فيَمُرُّونَ على قَدْرِ أعمالِهم، حتى يَمُرَّ الذي نورُه على إبهامِ قَدَمِه، تَخِرُّ يَدٌ، وتَعْلَقُ يَدٌ، وتَخِرُّ رِجلٌ، وتَعْلَقُ رِجْلٌ، وتُصِيبُ جوانبَه النارُ فيَخْلُصُونَ، فإذا خَلَصُوا قالوا: الحمدُ للهِ الذي نَجّانا منكِ بعدَ أن أَراناكِ، لقد أعطانا اللهُ ما لم يُعْطَ أَحَدٌ.

الألباني (١٤٢٠ هـ)، شرح الطحاوية ٤١٥ • صحيح

"يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ"،

إذًا هم لم يدخلوا الجنة بعد، بل مقولتهم هذه تأتي في الطريق إلى الجنة –سواء من أرض المحشر إلى الجنة أو من الصراط إلى الجنة– فهو معه نور، وليس ذلك فحسب، بل يطمئنهم الله عز وجل بقوله أبشروا:

"بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ"،

طبعًا هذا يكون للمؤمن، وهذه أشد لحظات الشوق إلى الجنة ، فالمؤمن بدأ يجد ريح الجنة فيريد أن يجري فنوره يسبقه، وهذا النور متفاوت على حسب الأعمال بالتأكيد.

فعندما قال الله:

"لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ" [الحديد:10]

فنور من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أعظم من نور من أنفق من بعد وقاتل،

فتأتي هذه الآية لمن ما زال عنده تباطؤ للبذل في الأزمات لتشجعه على أن يبذل وينطلق ويتحرك.

"يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ..."

تأكيد وحصر، أي هذا هو

"الْفَوْزُ الْعَظِيمُ".

موازين المنافقين مختلفة دائمًا وأبدًا عن موازين ومعايير المؤمنين، فموازين أهل الإيمان أن "الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" هو أن تظل ثابتًا على مبادئك إلى أن تموت، ولهذا لما طُعن حرام بن ملحان قال: (فزت ورب الكعبة)[7]، فهذا بالنسبة للمنافقين خسارة، لأنه خسر ماله، ومات.

فعلى سبيل المثال لو أنفق شخص ماله كله في غزوة، وهُزمت الغزوة، فلو كان –على سبيل المثال– في غزوة أُحُد هناك ضيق مادي، وهناك حاجة إلى مال، فجاء أحد الصحابة وأنفق ماله كله في غزوة أحد، وحصلت الهزيمة، فالمنافقون يرون من فعل ذلك خاسرًا، فمقاييسهم مختلفة تمامًا عن مقاييس أهل الإيمان. لذلك؛ أعمال أهل الإيمان بالنسبة للمنافقين هي ضرب من الجنون! فهم لا يقدرون عليها؛ لأن حساباتهم مختلفة، فليس لديهم **النور** الموجود في سورة الحديد:

[7] البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٢٨٠١ • [صحيح]

- لا يملكون نور معرفة الله
- ولا نور "اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ"
- ولا نور "مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ"

وهذا النور ذكر كثيرًا في سورة الحديد

نلاحظ تكرار كلمة "يَوْمَ":

- "يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ"
- "يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ"
- "فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ"

هذا اليوم هو اليوم الحقيقي الذي ستظهر فيه النتيجة والتمايز بين المؤمنين والمنافقين.

أي أن أهل النفاق سيظلون غير مكشوفين بالنسبة لأهل الإيمان، بالرغم من وجود الابتلاءات -التي هي في الحقيقة السور الذي يميز بين المؤمنين والمنافقين في الدنيا- ولكن هذا التمايز لا يدركه كل الناس فيبقى المنافقون مختبئون في وسط المؤمنين، ولن يحدث التمايز الحقيقي الفاصل التام إلا **يوم القيامة**.

وهناك حديث مشهور في البخاري ومسلم وغيره، يقول أن كل أمة ستتبع ما كانت تعبد، "إذا كان يومُ القيامة أذَّن مؤذِّن: تَتْبَعْ كلُّ أُمَّة ما كانت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبُدُ غير الله – من الأصنام والأنصاب – إلا يتساقطون في النار ،..."[8] الحديث.

فمن يعبد الشمس سيسير وراءها إلى أن يقع في النار، وهكذا، (وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها)[9] النبي صلى الله عليه وسلم يقول هذا، في أرض المحشر سيبقَ المنافقون مستخفون في وسط هذه الأمة، إلى أن يتمايز الكفار عن المؤمنين، والمنافقون ما زالوا بينهم.

[8] " ... إذا كانَ يَوْمُ القِيامَةِ أذَّنَ مُؤَذِّنٌ **تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ ما كانَتْ تَعْبُدُ**، فلا يَبْقَى مَن كانَ يَعْبُدُ غيرَ اللَّهِ مِنَ الأصْنامِ والأنْصابِ، إلّا يَتَساقَطُونَ في النّارِ، حتّى إذا لَمْ يَبْقَ إلّا مَن كانَ يَعْبُدُ اللَّهَ بَرٌّ أوْ فاجِرٌ، وغُبَّراتُ أهْلِ الكِتابِ..."
البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٤٥٨١ • [صحيح]

[9] " حْشَرُ النَّاسُ يَومَ القِيَامَةِ، فيَقولُ: مَن كانَ يَعْبُدُ شيئًا فَلْيَتَّبِعْ، فَمِنْهُمْ مَن يَتَّبِعُ الشَّمْسَ، ومِنْهُمْ مَن يَتَّبِعُ القَمَرَ، ومِنْهُمْ مَن يَتَّبِعُ الطَّوَاغِيتَ، **وتَبْقَى هذِه الأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا**... "
البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ٨٠٦ • [صحيح]

وهنا يأتي هذا المشهد:

"يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا" [الحديد:13]

- حمل بعض المفسرين هذه الآية على مشهد هذا الحديث السابق؛ أنه التمايز بين أهل الإيمان والكفار سيحدث **في أرض المحشر**، وسيبقَى المنافقون وسط أهل الإيمان، ثم تُظلم أرض المحشر كلها، ولا يبقَ إلا نور أهل الإيمان.
وعندها، ينطلق أهل الإيمان مسرعين باتجاه الجنة (يسعون)، وعندها يفاجأ أهل النفاق أن النور ينفذ من حولهم، وأهل الإيمان يسعون والمنافقون لا يستطيعون اللحاق بهم،
فيقولون لهم: "انْظُرُونَا" في قراءة، وفي قراءة أخرى "أَنْظِرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ"
فكثير من المفسرين حمل هذه الآية على **مشهد أرض المحشر**.

- وحملها بعضهم على **الصراط**؛ فقال هذا يحدث على الصراط،
حيث يسير المؤمنون والمنافقون جميعهم في نور عام، النور العام للمؤمنين، والمنافقون كالعادة مستخفون في الزحام، ولكن المؤمن يأخذ نوره ويسير على الصراط، ولذلك قال: "يَسْعَىٰ نُورُهُم"، أي النور الخاص بكل واحد منهم.
فالمؤمن يمر ومعه نوره، ثم يأتي المنافق وهو معتقد أن معه النور، فيفاجأ عندما يبدأ بالسير على الصراط أن النور يختفي.
وهذا قول الحسن البصري؛ قال الحسن: هذه خدعة الله عز وجل للمنافقين، أن النور ينزع منهم على الصراط، فيسقطون في جهنم –والعياذ بالله–، كما قال الله:
"يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ" أو "سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ".

إذًا إما أن تُحمَلَ هذه الآية **على أرض المحشر أو على الصراط**

أيًا كان، فهذا موقف أُخْرَوِيّ، يترك فيه المؤمنون المنافقين، ويسْعَوْن سعيًا سريعًا إلى الجنة، سواءً من أرض المحشر للجنة أو من على الصراط، ويُترك المنافقون وليس معهم نور.

"يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا" [الحديد:13]

فعندما يرى المنافقون المؤمنين يمرون ومعهم النور، يقولون لهم انتظروا..
مع أن المنافقين كانوا دائمًا يتبرؤون ويسخرون من المؤمنين في وقت الفتن، ويريدون أن يجعلوا بينهم وبين المؤمنين حواجزًا،

ودائمًا عندما يحدث هزيمة للمؤمنين يذهب المنافقون إلى الكفار ويقولوا لهم:

"أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ" [النساء:141]

"إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ" [البقرة:14]

أنا معك.

أما الآن، سيظل يجري بلهفة وراء المؤمنين، ينادي عليهم ليكونوا معه، مع أنه كان يتبرأ منه في الأزمات والفتن.

وهذا حال المنافقين الآن؛ يريدون أن يتبَرَّؤوا من المسلمين ومن جميع الأحكام الشرعية،

فإذا حدث تمكين، يتحول حالهم، وتتحول أقوالهم، فالمنافقين لا ملة لهم ولا قرار، يبحثون عن مصلحتهم. لذلك هم دائمًا متربصون ومرتابون، تائهون، أسير هنا أم أسير هناك؟.

"انظُرُونَا"

أي: انتظرونا،

وبعضهم -كالزمخشري- قال "انظُرُونَا" أي: انظروا إلينا، لكن هذا المعنى ضعيف.

"انْظُرُونا نَقْتَبِسْ"

نقتبس، لم يقل نأخذ من نوركم.

فنأخذ تعني أن النور الأصلي سينقص، ولكن لا!

القَبَس معناه: أن تأخذ شعلة من أحد **دون أن ينقص** من النور الأصلي شيء.

فهو يقول له لا تخف، فأنا لن آخذ إلا ما يجعلني أسير دون أن أنقص من نورك شيئًا،

وهو معتقد أنه سيرضي المؤمنين بكلمة -كعادته في الدنيا-، فيقول "أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ"؟ (ألسنا إخوة؟)

يعتقد أن الحياة تسير هكذا برضا الناس دائمًا، ليس عنده فكرة الرجوع إلى الله بأن يقول (يا رب)،

فعندما تُغلق الأبواب في وجهه، يبحث أولًا عن وسيلة لإرضاء المؤمنين، فهذا وقت المؤمنين،

فهو يفكر في إرضاء الناس من أجل مصالحه.

فهنا: "انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ".

"قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ"

جاءت هنا كلمة "قِيلَ" ولم تأت "قالوا لهم".

قال بعض المفسرين:

أن المؤمنين لم يلتفتوا إليهم ولم ينظروا إليهم، والملائكة ردت عليهم لا المؤمنين.

فلا ينبغي للمؤمن أن ينشغل بكلام المنافقين في وقت الأزمات، فلا تلتفتْ إليه أصلًا،

وإياك أن تشاهد برامجهم أو تنشغل بها؛ لأن هذا مضيعة لوقتك،

وسيأتي الوقت الذي سيجري هو ورائك ويقول لك: "انظُرُونَا"

سيأتي في الدنيا أو في الآخرة، قد نموت ولا نراه في الدنيا لكنه قادم لا محالة،

"يَوْمَ"؛

هذا اليوم انتظروه فسوف يأتِ لا محالة.

"يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ"

قال بعض المفسرين: "ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ" فيها استهزاء وسخرية؛

أي: كانوا في أرض المحشر، وأظلمت الدنيا عليهم

فالمؤمنون يسعون ونورهم معهم، ويركبون مراكبهم –ويسمونها النُدُب– إلى الجنة،

والمنافقون بدأوا بالجري خلفهم: انتظرونا انتظرونا،

فالملائكة تقول لهم: "ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ"

فيرجع المنافقون أدراجهم، وعندها لا يجد المنافقون شيئًا،

نفس الخدعة: "ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا".

وبعضهم قال: "ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ" أي: وراءكم إلى الدنيا، فالنور لا يُلتمَس في الآخرة.

وكأن فيها معنى التعجيز، أي ارجع إلى الدنيا لتأتي بالنور، فالنور لا يأتِ هنا، فاليوم يوم جزاء وليس يوم عمل، ارجع إلى الدنيا كي تعمل!

"ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا".

أهل الإيمان كانوا يلتمسون النور في زمن الفتن، ولكن من أين يلتمس أهل الإيمان النور؟

"هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ" [الحديد:9]

فهم يلتمسون النور **من القرآن**، يحاولون أن يلتمسوا ويبحثوا عن النور.

فالملائكة تقول لأهل النفاق: ارجعوا فابحثوا عن النور في الدنيا.

إذًا المعنى:

- إما سخرية واستهزاء
- أو خديعة لهم (أن يرجع فلا يجد شيئًا)،
- أو أن هذا تعجيز بأن تقول له: ارجع إلى الدنيا فوقت العمل قد انتهى.

"ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا".

وعندما يرجع يُفاجأ!

"فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ"

ال"ف" تفيد السرعة،

"فَضُرِبَ" ضُرب تفيد السرعة، وتمكُّن السور الذي بُنِيَ بينهم.

"بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ"؛

أخيرًا يحدث التمايز الحقيقي النهائي بين المؤمنين والمنافقين، وهو لا يحدث إلا هنا.

إذًا، سيظل هناك تداخُل دائمًا وأبدًا، سيظل المنافقون متغلغلون بيننا، ولكننا لا نشعر بهم،

كالذين قيل فيهم: "لَوْ خَرَجُوا فِيكُم"،

(فيكم)! سيظلون بيننا..

"لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا" [التوبة:47]

وفينا سمَّاعون لهم للأسف؛ لأنهم متواجدون بيننا ولكننا لا نحس بهم.

فهذا التمايز الحقيقي لن يحدث إلا بهذا السُّور.

أهل الإيمان والبصيرة **يروْنَ هذا السور في الدنيا من الآيات البينات التي تنزل في القرآن**، ويميّزون هذا السور في زمن الفتن، ولكن هذه المعرفة والتمييز لا يقدر عليها كل الناس.

الله -سبحانه وتعالى- قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: "وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ" [محمد:31]، فقد يعرفهم البعض، ولكن ليس بالضرورة أن يعرفهم كل الناس.

"فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ"

قال بعض المفسرين: أليس المطلوب هو الفصل التام بين المنافقين والمؤمنين؛ **فلماذا يوجد له باب؟**

* قال بعضهم:

بعض ضعاف أهل الإيمان سيتأخر قليلًا ولكنه يملك بعضًا من النور، فيُضرب السور، ولكن يُترك به باب؛ **حتى يمرّ منه آخر قلة مؤمنة معها بعض من النور**، منهم من لم يبقَ معه من النور إلا على قَدَر أصبع قدمه ومنهم أقل من ذلك[10]، فهؤلاء يمرون من السور، والمنافقون ينظرون بحسرة، حتى يدخل آخر شخص منهم ثم يُقفل الباب.

* وبعضهم قال:

هذا الباب **زيادة في الحسرة لأهل النفاق**؛ حتى يبقى لديه أمل أن الباب سيفتح له، ولكنه الحقيقة أنه لن يُفتح.

وهذا المعنى جاء أيضًا في قول الله –عز وجل– في آخر سورة الهمزة: "إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ". يوضع هذا الذي يهمز ويلمز في تابوت –والعياذ بالله–، أو في سجن له باب والباب يُقفل، ويُبقِ الله هذا الباب موجودًا، مع أنه لن يُفتح أبدًا، ولكن يبقيه الله حتى يظل من بالنار يستغيث دائمًا؛ لعل الباب يفتح وهو لن يفتح –والعياذ بالله–.

"بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ"

قال بعض المفسرين: العذاب هنا هو **الظلمة**، فجهتهم فيها ظُلمة،

وبعضهم قال: هذا السور هو الحجاب الذي ذُكِر في قوله تعالى في سورة الأعراف: "وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ" بين الجنة والنار..

فمن ناحية الجنة: "بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ" فباطن السور جزء من الجنة،

وظاهر السور جزء من النار، فيخرج من السور الحرّ وغيره.

وكما ذكرنا، بعضهم قال: المقصود الظلمة، أيًّا كان،

فالسور "بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ" من جهة المؤمنين، "وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ".

---

[10] " .. حتى يكونَ آخِرُ مَن يُعْطى نُورَه على إبهامِ قَدمِه، يُضِيءُ مَرَّةً ويُطْفِئُ مَرَّةً، وإذا أضاء قَدَّمَ قَدَمَه، وإذا طَفِئَ قام .."
*انظر تخريج الهامش رقم (6)

يجب علينا أن نشعر هذا الشعور في الدنيا، لا بد من وجود انفصال شعوري بيننا وبين المنافقين في الدنيا في الأزمات والفتن. يجب أن نشعر أنه على الرغم من أننا مضطهَدين وفي فتن وابتلاءات إلا أننا نحن محاطون بالرحمة.

وبالرغم من أن المنافق يلهث "يُسَارِعُونَ فِيهِمْ" وراء أهل الكفر "يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ"، فهو يلهث مثل الكلاب وراء أهل الكفر؛ بحثًا عن أي شيء يبقيه على قيد الحياة، هو يشعر بالعذاب دائمًا، ونحن نشعر بالرحمة دائمًا. لا بد من وجود انفصال شعوري بيننا وبينهم.

"فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ" [الحديد:13].

"يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ" [الحديد:14]

"يُنَادُونَهُمْ".. لاحظ أن آية 13 بدأت بقول: "يَوْمَ يَقُولُ"، ولكن الآن جاءت "يُنَادُونَهُمْ"

فلماذا لم تأتِ: يقولون لهم؟

لأن السور ضُرب، فأصبحوا يصيحون وينادون بصوت عالٍ، فهو يصرخ في آخر لحظات، "يُنَادُونَهُمْ" بعد ما خرج المؤمنون يسعون بالنور قائلين لهم: "أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ" ؟! هنا التفت المؤمنون حتى يُبكّتوهم.

والعجيب أن جواب المؤمنين يدل على بصيرة أهل الإيمان، ويدل على أنهم قد أحسنوا في تحليل شخصية المنافق. لم يكن المؤمن ساذجًا، بل كان يدرك لمَ وصل المنافق إلى هذه المرحلة، وكان يتابعه في كل مراحل سقوطه؛ يتابعه خلال الأربع مراحل المتمثلة بالتالي:

- "فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ"
- "وَتَرَبَّصْتُمْ"
- "وَارْتَبْتُمْ"
- "وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ"

فقد كان يتابع تدهوره ولم يكن ساذجًا، المؤمن على بصيرة، المؤمن معه نور، مدرك لدركات سقوط المنافقين جيدًّا.

المؤمن اللي لا يملك النور قد لا يدرك هذه الأمور، وقد لا يكون على بصيرة.
فلو جاءه أحد من المنافقين وقال له: "أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ"؟
قد يقول له: نعم بالفعل لقد كنت معنا، ما الذي حصل لك؟ ألم تكن معنا؟
الذي لا يملك النور قد لا يفهم الأمر. قد يقول لك متعجبًا: فعلًا يا أخي، كيف حصل هذا مع فلان وهو يصلي؟!

هذه أمور غير ظاهرة، ومن المفترض أن يكون المؤمن على بصيرة فيفهمَ أفعالَ المنافق، ويفهم أن هذه الأفعال تظهر في أوقات الأزمات والشدة والضيق، فتكشف لنا نفاقه، وتعرّفنا أنه منافق.
فمثلًا، أكثر صفة تتكرر في المنافقين: "يُسَارِعُونَ فِيهِمْ"؛
الصفة هي أنه وقت الضيق يجري ويلهث وراء أهل الكفر، **مسألة الموالاة**، ليس عندهم ولاء وبراء فهم يوالون أهل الكفر، وهذا أشهر معنى تكرر في القرآن بالنسبة للمنافقين.

بعض المفسرين تساءل: **لماذا جاءت كلمة "يُنَادُونَهُمْ" للمنافقين بينما جاءت "قالوا" للمؤمنين؟**
المؤمنون لن يرهقوا أنفسهم ولن يتعبوا كي يبلّغوهم، الله –سبحانه وتعالى– سيوصل صوتهم، فهم لا يحتاجون إلى رفع أصواتهم أو إلى الصراخ، هذا من فضل الله على المؤمنين؛ أن المؤمن لا يتعب حتى يرد على المنافق، **هو يتكلم كلامًا عاديًا والله يبلّغ صوته**.

ربط حوادث الآخرة أمر صعب جدًّا، فأنت تعيش مع كل مشهد لوحده.

كذلك موضوع رؤية أهل الإيمان لعذاب الكفار والمنافقين في الآخرة –وإن لم يرد ذكر ذلك معنا في السورة– هذا الأمر من أكثر ما يشفي صدور أهل الإيمان؛ وهو مذكور في أكثر من موضع في القرآن، فكما ذكرنا جاء ذكر هذا الموضوع:

- في آخر سورة إبراهيم: "وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ"
- في آخر سورة المطففين: "فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ"
- في سورة الصافات: "قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ".

لذلك قال بعض المفسرين: تُفتَح "كُوَّة" لكل مؤمن وهو جالس على أريكته في الجنة، الكُوّة هي عبارة عن طاقة أو نافذة، حتى يرى مَن كان يعذبه أو يسخر منه وهو يُعذَّب في جهنم.

تخيل!

تُفتح له نافذة وهو جالس على الأريكة يشرب الخمر المخصص له في الجنة،

فيقول للذين معه: دعوني أُريكم شيئًا، ويفتح الكوة..

هل ترى فلانًا؟

هذا هو الذي خصص حلقةً من برنامجه ليسخر منا، وهذا من كان يضرب سيدنا بلال ويعذبه، هذا هو!

فيشفي صدورهم، هذا مما يشفي صدور قوم مؤمنين، فهنا أيضًا هذا الرد يشفي صدورهم "قَالُوا بَلَى".

كلمة "أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ" يقولون هذه الكلمة يوم القيامة،

وقد قالوها من قبل في الدنيا ساعة نصر المؤمنين:

"الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ" [النساء:141]؛

نفس السؤال الاستفهامي عندما انتصر المسلمون قالوا لهم: "أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ"

وعندما شاهدوا المسلمين ومعهم نور في الجنة قالوا: "أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ".

وعندما عاتبهم اليهود قائلين كيف تقولون للمسلمين نحن معكم؟!

"وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ" [البقرة:14]

فالمنافق يريد أن يكون مع كل الأطراف!

هو يكرر هذه الكلمة لأي طرف عندما ينتصر (أنا معك، أنا معك)

"أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى".

لاحظ أهل الإيمان وبصيرتهم في قولهم: "وَلَكِنَّكُمْ"

وبدأوا يعدّدون لهم.

أوّلًا: "فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ"

ما معنى فتنتم أنفسكم؟

أي: عندما عُرض عليك الإيمان لم ترم نفسك إليه، بل ظللت تفتن نفسك وتتردد.

وانتبه لكلمة "فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ"،

أي: أن نفسك كان بإمكانها أن تهتدي وتُسحب إلى الإيمان، لو أنك تركتها ولم تفتنها!

هناك معنى في سورة البقرة يُمكن استخلاصه من آية: "يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ"؛
أي تكاد آيات القرآن أن تهديَهُ، لكنه يرفض!

بالطبع آيات القرآن هي نور بالنسبة لنا نحن المؤمنين، **فآيات القرآن نور لا برق بالنسبة لنا،**
ولكن هي برق بالنسبة لهم، خطفات لامعة؛ لأنه لا يترك نفسه للقرآن:
"يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ"
هذا أحد المعاني، أنه **كاد** أن يؤمن لكنه فتن نفسه،
وتردد وظل يفكّر بالاحتمالات،
وظل يفتن في نفسه،
فلم يرمِ نفسه إلى الإيمان، ولم يعد مُنقادًا،
بل أصبح متربصًا يقول: لا! لا!.

الذي لا يترك نفسه مع آيات معرفة الله –الواردة في أول سورة الحديد–،
ولا يترك الآيات تنزل على قلبه،
ولا يترك آيات الدار الآخرة تنزل على قلبه،
سيعيش مفتونًا!

ثم بعد ذلك يدخل في **المرحلة الثانية** :
"**وَتَرَبَّصْتُمْ**"
يصبح غير قادر على الاختيار، (هل أسير هنا أم هناك؟). بدأ يتربص.
يتربص بمعنى: **ينتظر**
فلو سألته: ماذا تنوي أن تفعل في الموقف القادم؟
يجيب: (والله سأنتظر، ومن ثم أكن مع المنتصر، فلو غلب حزب الإخوان أكُن منهم، ولو غلب العلمانيون أكُن منهم، ولو غلب الشيوعيون أكُن منهم)
كالذي يترك خانة الديانة فارغة، وخانة الانتماء أيضًا يتركها فارغة،
أو يكتبها بالقلم الرصاص الذي يسهل محوه لا الحبر الدائم،
هذا هو المتربص.

كما ذكرنا وقلنا: "الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ"

فإن كان الاحتمال الأول؛ يتصرفون بطريقة، وإن كان غير ذلك؛ يتصرفون بطريقة أخرى!

هو ينتظر ليرى النتائج.

"وَارْتَبْتُمْ"

تربصه جعله دائمًا **في شك**؛

فحتى إن كان مع المسلمين وانتصر معهم لا يرتاح، بل يبقى مرتابًا؛ لأنه لا عقيدة له!

ولو انتصر الكافرون وهو معهم، فيُقال له ابق كافرًا مثلًا، ولكنه مرتاب،

فيقول: لا، وماذا لو انتصر المسلمون؟

قد يذهب مع المؤمنين في غزوة ويعودون بالنصر، ولكنه يشك ويقول: (لا! أنا مرتاب وإني في شك)

وفي فتح مكة بقي على شكه، وفي غزوات النصر كلها ما زال عنده شك!

يشبه حاله حال الرجل الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم: "ما زال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا"[11]. هو ظل يكذب وإن كان الموقف لا يحتاج كذبًا، فتجده يكذب بغير داعٍ.

فهو يظل مرتابًا، وقد فتن نفسه وتربص وسيبقى طوال عمره مرتابًا.

"وَغَرَّتْكُمُ"

ما الذي غركم؟

"الْأَمَانِيُّ" !

فهو ظل يحلم؛ متى يكون له شيء ثابت خاص به؟

متى سيأتي وقت يكون فيه للمسلمين نصر دائم ثابت؛ ليكون منهم؟

أو: متى يكون هناك نصر دائم للكافرين فيكون معهم؟

"حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ"؛

أغلب المفسرين قالوا في تفسير "جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ" : أي أنهم ماتوا

وإن كان الإمام ابن عطية –في المحرر الوجيز– قال في تفسير "حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ"

أي: نصر الله، أي أن المسلمين انتصروا النصر المبين.

[11] " .. وما يَزالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ ويَتَحَرّى الكَذِبَ حتّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذّابًا.. "
مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٦٠٧ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧) واللفظ له

إذًا، المنافق مر بأربع مراحل:

فتن نفسه،

وبعد ذلك بقي منتظرًا **متربصًا،**

بعدما بقي منتظرًا متربصًا، ظل **مرتابًا** حتى لو كان مع أحد الأطراف..

أي أن هذا المتربص لم يختر طريقًا بعد، يقول لنفسه (هل أسير إلى اليمين أم إلى الشمال؟)

المرتاب حتى بعد سيره يظل مرتابًا؛ لذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول في آية الحجرات:

"إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا" [الحجرات:15]

هل معنى ذلك أنك ممكن أن ترتاب بعد الإيمان؟

نعم، ذلك ممكن، ولكن **كيف؟**

قد تحصل أزمات تجعلك تشك..

فكلمة "ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا" هي أنك **لا تشك أبدًا!**

سواء فيها معنى التراخي الزمني أو التراخي الرُّتَبي -أي رتبة أعلى من مرتبة الإيمان-؛

لا تشك أبدًا حتى وإن سمعت شبهات!

لا تشك أبدًا وإن حصلت أزمات كهزيمة غزوة أحد!

"ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا".

فمرتبة عدم الريبة أعلى من مرتبة الإيمان!

"إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا" [الحجرات:15]

"وَجَاهَدُوا"!

فالذين تنتابهم الريبة لا يستطيعون أن يجاهدوا؛ فالجهاد يحتاج إلى عدم ريبة، ويحتاج إلى إنسان موقن!

لو كان لديك شك، وجاء وقت الجهاد والبذل، لن تقدر عليه -حتى ولو كنت شجاعًا وقويًا-،

ستجد أنك غير قادر على الجهاد والبذل، وأنك تضع فرضيات واحتمالات، وتتردد!

لذلك؛ تجد من لم يضبط نيته في أمرٍ ما في ريبة دائمًا، ويكون مترددًا، (هل أذهب أم أبقى؟)

فإذا ضبطتَ نيتك، وجعلتها واضحة وخالصة وصافية، وأيقنت بنتائجها -حتى لو لم ترها-؛

تجد أنك تلقي نفسك في الجهاد والبذل.

"وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ"،

قيل أن الْغَرُورُ تعني "الشيطان"، أي: غركم الشيطان بالله؛ أي: جعلكم لا تَقْدُرُوا الله حق قدره؛
"غَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ".
وقيل، الغُرور معناه: أن لا تعطي الشيء قدره.

وقيل –كما قلنا– أن الغَرور **تعني الشيطان أكثر**؛ لأنها صيغة مبالغة.
أكثر مخلوق يخدعك ويخدع الناس هو الشيطان، لذلك سموه "الغَرور" ؛ أي: الذي يغر الناس،
وأكبر وظيفة للشيطان –بما أنه هو الغَرور– هي أن يغرهم.

ماذا تعني يغرهم؟
أي: أنه يظهر لهم الأشياء على غير قيمتها.
إذًا؛ أكبر وظيفة للشيطان هي أن يوهمك أن قدر الصلاة قليل، ويوهمك أن حجم الشهوة كبير، **فيعكس لك الموازين**، هذه أكبر وظيفة للشيطان.
وبالتالي، ما هي أكبر وظيفة لشياطين الإنس؟
الجواب هو: **قلب الموازين**؛
أن يظهروا الأمور العظيمة على أنها أمور بسيطة، ويظهروا الأمور الحقيرة على أنها أمور عظيمة
"يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ" [النساء:120]

قال أغلب المفسرين: "وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ"
أي: أن الشيطان خدعك –كما ذكرنا–، وذكرنا أن " الْغَرُورُ " معناه: أن ترى الأمر على غير قيمته الحقيقية، فلمْ يجعلك تنظر إلى الله عز وجل بالتقدير والتعظيم اللازمين، بل جعلك تستهين بالله.

وذكر المفسرون أن "الباء" في "غَرَّكُم بِاللَّهِ " جاءت بمعنى: بسبب الله؛
أي: أنه يشعرك أنك أرضيت الله عز وجل، وأنك على الطريق السليم، وأنك ترضي الله،
كما في قول الله عز وجل: "أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ"
فهو لا يشعر، بل **يظن أنه على الطريق الصحيح!**
فالشيطان خدعهم وأوهمهم أنهم سائرون على الطريق الصحيح.
"وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ" وهذا القول الأخير هو اختيار ابن عاشور.

"فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ" [الحديد:15]

"فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ"

أيْ: مال.

الآن يريد أن ينفق!

وذكرنا أن الآيات بدأت بقول: "آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ"

وماذا؟

"وَأَنفِقُوا"..

فالآن تريد أن تنفق؟!

كلا، انتهى الأمر!

الإنفاق كان في أزمات الدنيا لا الآن. كل طاعة لها وقتها.

مثل الأعرابي الذي جاء للنبي صلى الله عليه وسلم –وهم في المدينة– وقال له: أبايعك على الإيمان والهجرة، قال له صلى الله عليه وسلم: الإيمانَ أقبِلْ، أما الهجرة قد مضت[12] ومضى أهلها بما فيها.

فهناك أمور لها وقت محدد وتنتهي.

"فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ"

لا يؤخذ منكم يا مَنْ كنتم تعيشون وسط المؤمنين، ولا يؤخذ من الآخرين

"وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا".

"مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ"

لم تأتِ في القرآن –على حد علمي– كلمة "هِيَ مَوْلاكُمْ" في سياق الحديث عن النار إلا في هذا الموضع الأمر يحتاج تأكيدًا، غالبًا، كنتُ قد قرأتُ هذه المعلومة في أحد التفاسير، وهي أن استعمال كلمة "هِيَ مَوْلاكُمْ" في وصف النار لم يأتِ إلا في هذا الموضع.

واستعمال لفظ (المولَى) في وصف النار عجيب!

[12] عن مجاشع بن مسعود السلمي: أَتَيْتُ النبيَّ ﷺ أُبايِعُهُ على الهِجْرَةِ، فَقالَ :إنَّ الهِجْرَةَ قدْ مَضَتْ لأَهْلِها، وَلَكِنْ على الإسْلامِ والْجِهادِ والْخَيْرِ. مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ١٨٦٣] •صحيح • [أخرجه البخاري (٤٣٠٥)، ومسلم (١٨٦٣) •

مشكلة المنافق أنه يبحث عن مأوى ويبحث عمن يتولاه..

المنافق يريد مأوىً؛ إما أن يأوي للمؤمنين، أو يأوي إلى الكفار،

يبحث عمن يتولى أموره، ولا يهمه لو كان من يتولى أموره هم المسلمون أو الكافرون..

ليس لديه مبادئ ولا عقيدة يدافع عنها، ليس لديه شيء، فلا يتبع عقيدة ولا كفرًا، إنما يفكر في شهوته ومصلحته فقط!

فالله عز وجل يخبره أن الجميع سيتركك ولن يبقَ لك إلا النار!

الكل سيتركك -المسلمون والمؤمنون والكافرون والشيطان- كلهم سيتخلون عنك،

لن يبقَ لك مأوىً إلا النار.

"مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ "

"هِيَ مَوْلَاكُمْ"

أي: هي التي ستتولاكم

لاحظ هذا التشبيه العجيب؛

فكلمة "وليّ الأمر" بالنسبة للطفل تعني الشخص الذي يطعمه ويشربه ويوصله إلى المدرسة،

هو الذي يدبر كافة أموره..

فالنار هي التي ستدبر كافة أمورك، طعامك من نار، وشرابك من نار، هي التي ستتولى أمورك، هي مولاك!

- سؤال غير مسموع من الحضور
- جواب الشيخ: لا أدري، فهذا المعنى لم أمرّ عليه في تفسير آية "فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ" في سورة القارعة، وما أعرفه أن معناها أنه (سيسقط في نار جهنم)، وقد يكون ذُكر لها معنى (أن أمه هي النار فهي تتولى رعايته) في أحد التفاسير.

إذًا؛ "هِيَ مَوْلَاكُمْ"

أي: هي التي ستتولاك، فليس لك ولي ولا نصير، لن ينفعك أحد!

هو أفنى عمره بحثًا عمن ينصره، عن مكان يختبئ فيه، فماذا يقول له الله في النهاية؟

ليس لك إلا النار.

"مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ".

إن المنافق اختار أسوأ اختيار..

المنافق يعتقد دائمًا أنه ناجح وذكي، وأنه قادر على خداع جميع الناس، لكنه سيُفاجأ أنه هو المخدوع حقًا، وأنه سينزل إلى أسفل منزلة وهي الدرك الأسفل!

المخدوع الأكبر في نهاية الأمر هو المنافق، أكثر من الكفار؛ لأنه كان يظن نفسه ذكيًا في الدنيا، كان كما شبهه النبي صلى الله عليه وسلم فقال في صحيح مسلم:

"مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ؛ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً"[13]

فهو كالشاة بين مجموعتين من الغنم، تذهب وتميل إلى مجموعة قليلًا ثم تميل وتنضم إلى المجموعة الأخرى.

فالله عز وجل يقول أن مصيره هو "بِئْسَ الْمَصِيرُ". أي أن: أسوأ مصير هو مصير المنافق –والعياذ بالله–.

"أَلَمْ يَأْنِ" ؟

بعد كل ذلك الخطاب..

"أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ * اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ"

هذه الآية تحتاج شرحًا تفصيليًا، سأجمل الحديث عنها حتى نفصل فيها في المرة القادمة.

جمهور المفسرين قال: أن هذا الخطاب موجه **للمؤمنين وأهل الإيمان حقيقة**.

وفيه عتاب لمن تباطأ من أهل الإيمان عن البذل والإنفاق، عندما قال الله عز وجل:

"وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ"، "وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا"

فجاء شوط في الحديث عن عاقبة النفاق يوم القيامة، ثم يقول له:

هل بعدما طوّفنا في الحديث عن هذه الأحداث والأمور، وعما سيحصل، هل لا زلت ترفض أن تتقبل؟

"أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا..." إلى نهاية الآية.

فهذا هو القول الأول.

والقول الثاني: أن هذا الخطاب **موجه للذين آمنوا ظاهريًا**.

فبعد ما طوّف بالمنافقين في جهنم، أعادهم مرة أخرى إلى الدنيا، وسألهم:

ألا تريد أن تؤمن بعد؟ هل فهمتهم المقصود؟

[13] مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٧٨٤] •صحيح

إذًا، إما أن تكون كلمة "أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ":

* موجهة للمؤمنين **حقًا** – لمن تباطأ منهم عن البذل-،

* أو موجهة للمنافقين، فتكون كلمة "آمنوا" تعني آمنوا **ظاهريًّا**؛

أي: "ألم يأن للذين آمنوا" في الظاهر أن يؤمنوا حقيقة، وأن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق؟

هذا أمر..

والأمر الآخر والذي سأختم به، ماذا قال الله سبحانه؟

"وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ":

- أولًا :"أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ"، فقد كان لديه كتاب
- ثانيًا: "فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ"، أي مرت عليه فترة وهو بعيد عن الكتاب، فطال عليه الأمد
- ثالثًا: "فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ"
- رابعًا: "وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ"

وهذه هي مراحل الانتكاس!

مراحل الانتكاس بدأت عندما كان معه كتاب في البداية، وهذا يدل أن هذه مراحل الانتكاس بالنسبة **للمؤمن لا المنافق**، أي أنه كان مؤمنًا، كان معه كتاب،

(وجمهور المفسرين يقول أن الخطاب في هذه الآية **موجه للمؤمنين**)

إذًا، أهل الإيمان عندهم بصيرة في سقوط المنافقين في الدركات، وعندهم بصيرة في كيفية انتكاس المؤمن؛

فذكرت أربع مراحل لسقوط المنافق:

فتنتم أنفسكم – تربصتم – ارتبتم – غرتكم الأماني

وذكرت أربع مراحل لسقوط المؤمن:

أوتوا الكتاب – طال عليهم الأمد – قست قلوبهم – كثير منهم فاسقون

المؤمن عنده بصيرة بأي تغير يحدث في حالة إيمانه، ويعرف متى ممكن أن يسقط، ويعلم كذلك كيف يسقط المنافق.

فهو –من جهة– يعلم حال المنافق الذي لم يدخل في الإيمان أصلًا، يعلم كيف حصل معه النفاق من أول لحظة وأنه فتن نفسه "فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ".

ويعلم –من جهة أخرى– حال الذي سيدخل في الإيمان ويؤمن بالقرآن، وأنه قد يتحول من هذه المرحلة إلى مرحلة الفاسق –والعياذ بالله–

لديه بصيرة هنا، ولديه بصيرة هناك،

يعلم كيف يتجنب السقوط هنا، وكيف يتجنبه هناك،

فهو يمتلك النور:

"هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ".

نُكمل بإذن الله تعالى في المرة القادمة.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.